

الأسطورة في عالمنا المعاصر

Legend in modern world

نبيل مسيعد*, جامعة باجي مختار. عنابة nabil.meciad@univ-annaba.dz

تاريخ النشر: 2022/06/15

تاريخ القبول: 2022/05/31

تاريخ الإرسال: 2021/11/06

ملخص:

منذ ظهور التفكير الفلسفي أخذت الأسطورة في التراجع فاسحة المجال لسيطرة أحكام العقل في كل ما يتعلق بالإنسان والكون وما وراء الطبيعة، ثم تعرض العقل نفسه للاضطهاد في العصور الوسطى لكنه عاد بقوة في العصر الحديث، وفي المقابل ازداد تهميش الأساطير. لكن عودة العقل لم تستمر بنفس المستوى بسبب الشك في نتائج العلوم الذي تفاقم في نهاية القرن التاسع عشر بالتزامن مع الأزمة التي عرفتھا الفيزياء، ثم جاءت أبحاث علماء النفس منسجمة مع هذا التوجه لتؤكد أن الإنسان لا يتحكم فيه المنطق العقلي فقط، بل يخضع لأنواع أخرى لها دور كبير في توجيه سلوكه. وهنا وجدت الأسطورة منفذا لتطفو على السطح من جديد في صورة رموز وطقوس، وهذا ما نحاول إبرازه في هذه المقالة من خلال الكشف عن بعض مظاهر الأسطورة وتجلياتها في عصرنا، حيث نجدها في العلوم والأدب والسينما والموسيقى والرياضة والعملات والرايات الوطنية والسياسية.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، الانثروبولوجيا، الإنسان، العقل، العلم.

Abstract:

Legend has allowed reason to dominate as concerns the Man and the universe and metaphysics in modern world, reason has been severely oppressed in the middle age but it has made a marked re-entry nowadays while legend has been further marginalized. This re-entry has not kept the same rhythm due to the criticism that made to formal logic, as well as

* المؤلف المرسل

doubt that characterized in sciences results in the end of the nineteenth century, in addition to the physics crisis.

Researches of psychology came to prove that human behavior is not only guided by the reason, so many factors contribute in it. Myth hence came back in symbols and rituals shown in individual and collective activities.

This paper will shed light on some legend aspects, as it can be found in philosophy, sciences, literature, cinema music, sports, currency, national and political flags.

Key words: Legend; anthropology; Human; reason; science.

مقدمة:

ينظر عادة للأساطير بوصفها قصص خرافية لا علاقة لها بالواقع، ولا صلة لها بالعقل، وقد تركزت هذه النظرة مع توسع التفكير الفلسفي وانتشاره، لتراجع الأسطورة أمام ضربات سقراط ومن جاء بعده من فلاسفة اليونان، إلا أنها عرفت بعض الانفراج في العصور الوسطى مستفيدة من الحملة التي شنتها الكنيسة ضد التفكير العقلي، وبمجيء العصر الحديث أخذت الأسطورة تتراجع مرة أخرى فاسحة المجال لسيطرة أحكام العقل في كل ما يتعلق بالإنسان والطبيعة وما وراء الطبيعة.

نعم لقد أدركت الأسطورة في العصر الحديث أدنى مستوياتها، إلا أنها لم تندثر بل ظهرت تحولات فكرية كان لها الأثر الطيب على عودتها، أعني بالتحويلات ذلك النقد الذي تعرض له المنطق الصوري المستند في الأساس لمبادئ العقل، ثم امتد النقد إلى مبادئ العلوم ونتائجها لتظهر على إثره أزمة العلم الحديث لاسيما في الفيزياء، ليساهم كل ذلك في الحد من هيمنة العقل والتعلق بالحقائق المطلقة، ثم جاءت أبحاث علماء النفس منسجمة مع هذا التوجه المناوئ للعقلانية، لتؤكد أن الإنسان لا يتحكم فيه المنطق العقلي فقط بل يخضع لقوى أخرى لها دور كبير في توجيه سلوكه.

وهنا وجدت الأسطورة منفذا لتطفو على السطح من جديد في صورة رموز وطقوس يمكن التعرف عليها في الكثير من النشاطات الفردية والجماعية، وهذا ما نعمل على إبرازه في هذه المقالة، بالكشف عن بعض مظاهرها وتجلياتها في الفلسفة والعلوم والأدب والسينما والموسيقى والرياضة

والعملات والرايات الوطنية والسياسية، من خلال الإجابة على هذه المشكلة: ما المقصود بالأسطورة؟ وما هي أبرز مظهراتها في عالمنا المعاصر؟

1. مفهوم الأسطورة

إن الأسطورة في أبسط تعريف لها، هي حكاية مقدسة، وإذا توسعنا أكثر فهي قصة تقليدية ثابتة نسبياً مرتبطة بنظام ديني معين تنتقل بين الأجيال، ولا تشير إلى زمن محدد، بل تُعبر عن حقيقة أزلية، من خلال حدث جرى أو متخيل. وتتضمن موضوعات كبرى محورها الآلهة والأبطال. وتتميز بكونها لا مؤلف لها، فهي نتاج خيال جمعي (الماجدي، 1998، صفحة 58)، ويتم التعبير عنها بلغة تناسب العصر والمكان الذي صيغت فيه، وشكل الأنظمة السياسية، والاجتماعية، والمستوى المعرفي الغالب هناك، وتهتم بوصف الحوادث الخارقة التي أخرجت الكون من العدم، ووطدت نظام الأشياء (نعمة، 2006، صفحة 25). ويبرز هذا المعنى أكثر في الفهم اليوناني لهذا المصطلح، الذي كان لا يرى في الأسطورة إلا قصة أو مجموعة من القصص تروي أفعال الآلهة أو مغامرات الأسلاف البطولية دون الدخول في تفاصيل المكان الذي ظهرت فيه (زيادة، 1986، صفحة 67).

ويبرز اضطراب معنى الأسطورة عند القدماء في كونهم لم ينفوا صفة القداسة عنها، وفي نفس الوقت ينظرون إليها باعتبارها أحداثاً تاريخية دون الشعور بوجود تعارض أو تناقض بين التصورين (السواح، 1996، صفحة 20). ويتم صب قصصها غالباً في قوالب شعرية، لافتقارها لعنصر الجاذبية فيلجأ أصحابها لتعويض هذا النقص بإخراجها في صورة عمل أدبي. لذلك معظم الأساطير البابلية والسومرية واليونانية مؤلفة في صيغة قصائد من أجل استمالة سامعها. ويعرفها فراس السواح بأنها حكاية مقدسة تحضى بالقداسة في الثقافة التي أنتجتها، وتتمتع عندهم بصدق روايتها باعتبارها رسالة سرمدية موجهة للناس، وتمثل عنده أحد أهم المكونات الأساسية في الأديان ومصدر كل عقيدة (السواح، 2001، صفحة 15). ويمكن القول مع خزعل الماجدي أن الأسطورة تتميز بكونها شكل من أشكال الأدب الرفيع يتم صياغتها وفق قواعد السرد القصصي ذات ثبات نسبي، تتناقلها الأجيال شفاهياً وكتابة، وتشير إلى حقيقة أزلية من خلال حدث ما، مع إهمال زمن وقوعه. وموضوعاتها شمولية كبرى تبرز في مقدماتها الآلهة وأنصاف الآلهة، ثم مسألة الخلق والتكوين والموت والعالم الآخر. ولا مؤلف لها لأنها ليست نتاج خيال فردي، أو حكمة شخص بعينه، بل هي ظاهرة جمعية، وقد يعيد الأفراد صياغتها عدة مرات (الماجدي، 1998، صفحة 58)، وتتمتع الأساطير بقدسيتهما ولها سلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم في العصر التي ظهرت فيه.

وبصرف النظر عن أصولها فإن الأسطورة نظام فكري متكامل يسعى لاستيعاب قلق الإنسان الوجودي وتوقه الأبدى لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحداه بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه وفي إطاره، وتسعى لإيجاد النظام حيث لا نظام، بغرض رسم لوحة متكاملة الوجود، وتعمل على منح الإنسان دليلاً في حياته ومعياراً أخلاقياً يلجأ إليه في اختيار السلوك المناسب (السواح، 1996، صفحة 19) واضعة بذلك أول الصيغ لكل الأمور التي عرفها الإنسان مع بداية ظهور وعيه بنفسه ومحيطه.

وكانت بالنسبة للشعوب التي أنتجت وسيلة لانسجام أفكارهم مع الوسط الطبيعي الذي يعيشون فيه، وللتعبير عن معتقداتهم في صورة أشعار متبادلة بينهم شفويًا، ثم قاموا بتدوينها على مراحل لاحقاً، فحفظوا بذلك عاداتهم وطقوسهم. هذا فضلاً على كونها المصدر الأول والأقدم لجل معارف وخبرات الإنسان، عندما كان يسعى لمعرفة الكيفية التي تشكل بها العالم، لاسيما في مراحل البدايات. فتكونت لديه بفضل تلك المحاولات معارف في صورة رموز مجازية ومشخصة للمبادئ الأخلاقية ونواميس الطبيعة وعناصر الكون، تخلصها إضفاء الحياة على بعض المحسوسات والكائنات والظواهر الطبيعية (الرزاز، 2012، صفحة 146)، مانحة بذلك الإنسان صورة كلية عن العالم الذي يعيش فيه، بنماذج منطقية تكون قادرة على قهر التناقضات التي يواجهها الواقع. ويصدق هذا على كل الشعوب بما فيها الاغارقة الذين لم يمنعم تعلقهم بالفلسفة والعلوم، من الاهتمام بالأساطير، فكانوا يقدسون الإنسان ومواهبه لدرجة دفعتهم لتصوير آلهتهم في أشكال إنسانية لها محاسنها وعيوبها. إلا أن الانطباع العام عن الأساطير لم يكن مشجعاً لحملها على محمل الجد فاتخذت مكانها على هامش الحياة الفكرية، أحياناً يشع منها ضوء خافت، وأحياناً يلفها الظلام الدامس لاسيما في الأوقات التي يعلو فيها شأن العقل، لكنها مع ذلك حافظت على استمرارها، ولا تفسير لذلك فيما أرى إلا انسجامها مع الطبيعة الإنسانية، بالإضافة إلى النقد الذي تعرض له المنطق الصوري، والدعوة للحد من الهوس بالعقل، والتأكيد على اعتباره قدرة من بين القدرات الأخرى التي يتمتع بها الإنسان، كل ذلك ساهم في بقائها.

2. مكانم الأسطورة في العلوم والتاريخ والأدب

إن النقد الذي طال العقل والشك في قدرته على معالجة كل القضايا، فسح المجال للحديث عن الأساطير باعتبارها نشاط فكري لا يقل قيمة عن المنطق العقلي ومناهج العلوم التجريبية، بدليل أننا نلتقي بها في مختلف الأنشطة التي يقوم بها الإنسان، فنجدتها في العلوم والأدب وغيرها من مظاهر الحضارة في عالمنا المعاصر.

1.2. الأسطورة في العلوم

الأسطورة عند فراس السواح وغيره من الانثروبولوجيين هي التي ألهمت الإنسان كل ما أبدع حتى الآن، وستستمر على هذا النحو مستقبلاً، وستظل تُعبر عن مغامرات الإنسان وحكمته وأسلوبه في المعرفة والتفسير والتعليل (السواح، 1996، صفحة 19). وهي التي وقفت خلف التصورات التي تركها القدماء حول شكل الأرض وموقعها في الفضاء، فهي محمولة على ظهر سلحفاة عند البعض، ومركزة على قرني ثور عند آخرين، ولكل قوم في هذا المجال تصور معين يقترب أو يبتعد عما نجده لدى غيرهم.

وفي عصرنا نلتقى مع هذا الضرب من المعارف التي تتقاطع مع الأساطير ومنها الأثير، هذا المصطلح الفيزيائي الذي لازل يلفه الغموض، هو عند علماء الفيزياء عبارة عن مادة تملأ كل الفضاء، وقد اضطر هؤلاء لقبوله ضمن مصطلحاتهم في القرن التاسع عشر ليتسنى لهم تفسير حركة الضوء في الفراغ. وأسطوريته تأتي من كونه لا يُرى ولا يُحس ولا يوزن. وظل هذا الطرح يحضى بالقبول على الرغم من أنه في عام 1864 م اقترح الفيزيائي كلارك ماكسويل أن موجات الضوء كهرومغناطيسية وبالتالي الضوء لا يحتاج إلى وسط لينتقل فيه، إلا أن ماكسويل نفسه ظل مقتنعاً بوجود الأثير، والنتيجة استمرار كلمة الأثير في التردد على أسماعنا في الإذاعة والتلفيزن، ونفس الشيء بالنسبة للجاذبية التي حددها نيوتن، فهي فرضية ملائمة لتفسير الكثير من الظواهر الطبيعية، لكنها لم تحض بالقبول عند اينشتاين الذي افترض آلية أخرى تحكم حركة الأجرام السماوية قائمة على فكرة الزمكان، وفي علم النفس لجأ كل من فرويد ويونغ إلى الميثولوجيا لشرح آرائهما في القضايا النفسية (أرمسترونغ، 2008، صفحة 16).

2.2. الأسطورة في التاريخ

أما في علم التاريخ فالمسألة معقدة بعض الشيء لأنه في الوقت الذي نجد فيه المؤرخون يستبعدون الأساطير، نجد منهم من يرى فيها الوثيقة الحقيقية التي يمكن الاستناد إليها لمعرفة وقائع التاريخ بشكل صحيح. إن الأسطورة في بعض الدراسات المعاصرة ليست نتاج الخيال، بل هي ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية، مثلها مثل التاريخ مُحملة بتجارب الأولين وخبراتهم المباشرة. وقد يكون الشاعر اليوناني هوميروس أول من أشار إلى استناد الأساطير لحقائق تاريخية. وأن صح ذلك فإن الإله اليوناني زيوس قد يكون أحد الملوك العظماء في كريت القديمة، لكن اختلاق القصص الأسطورية عنه، غيَّب حقيقته إلى حد كبير. وضمن هذا التوجه نجد الانثروبولوجي البولندي برونسلاف

مالينوفسكي (1884. 1942) الذي رفض وصف الأسطورة بالقصة الرمزية لأنها بنظره حقيقة يتم من خلالها التعبير عن الحياة الاعتيادية للناس في كل مكان(كورتل، 2010، صفحة 8). وهذا ما عبر عنه المفكر الإيراني داريوش شايبان (1935. 2018) بقوله: إن الأسطورة ليست حكاية أو خرافة وإنما هي تاريخ حقيقي. واستدل على ما ذهب إليه باستمرار البشر في التعلق بها إلى يومنا هذا(شايبان، 2007، صفحة 101). فالأسطورة حسب هذا التصور لم تكن مجرد قصص مسلية أو حكايات مثيرة، وإنما لها مهام ودلالات تكمن في ثناياها(الغني، 2012، صفحة 16) إنها قصص حقيقية تعرضت إلى التعديل، لذلك قراءة التاريخ عند أصحاب هذا الطرح لا تكتمل دون الاطلاع على أساطير تلك الفترة(القمني، 1999، صفحة 26).

وعليه فإن التعارض بين الأساطير والتاريخ حسب هذا الطرح ليس تعارضا حاسما بل هناك مستوى من العلاقة المشتركة بينهما. وفي هذا قال الانثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس (1908 . 2009) : "إنني لست بعيدا عن الاعتقاد بأنه في بعض المجتمعات قد حل التاريخ محل الميثولوجيا، إنه يقوم بنفس الوظيفة، وأنه في المجتمعات دون مستوى الكتابة، والتي لا توجد لديها أشكال الأشفيف أو المحفوظات التي توجد لدينا، ويكون هدف الميثولوجيا هو ضمان بقدر الإمكان أن يظل المستقبل شديد الصلة بها. أما عن الثغرة التي نشعر بوجودها بين الأسطورة والتاريخ، فإنه بالإمكان تجاوزها إلى حد ما عن طريق النظر في مصادر التاريخ المختلفة ليس باعتبارها منفصلة تماما عن الميثولوجيا ولكن على أنها استمرار لها"(شتراوس، 1986، صفحة 64). فالأساطير عندها لها شخصيتها، والرموز التي تحفل بها هي محل تقدير كبير لدى الكثير من المهتمين بدراسة الشعوب، لا على أساس أنها هراء أو عبث أو رسائل خاطئة للسيطرة على الطبيعة، وإنما على أساس أنها واقع حدث مهما كان الإطار الأدبي الذي صيغت به والذي قد يتعرض للتحريف (زكي، 2000، صفحة 69).

وهذا ما أكده المفكر الروماني مرسيا إلياد (Mircea Eliade 1907. 1986) فالأسطورة عند هذا المفكر على الرغم من طابع القداسة الذي يحيط بها، وكونها تحكي أفعلا قامت بها كائنات عليا. فهذا لن يفقدها في نظره حقيقة اتصالها بالواقع. فهي قصة واقعية يريد من صاغها تعليم غيره كيفية ظهور الأشياء إلى الوجود. ويعتقد أنه من السهل استقبال رسالة الأسطورة لكن بشرط التعامل معها ليس على أنها معرفة قابلة للكشف عنها من الخارج مثل حقائق العلوم الطبيعية، بل على أساس أنها طقوس قابلة

لإعادة الإحياء في كل حين (الياد، 1991، صفحة 10). هذا الاتجاه الذي سار فيه إلياد ومالينوفسكي نجده أيضا عند عالم الأنثروبولوجيا الاسكتلندي جيمس فريزر James George Frazer (1854. 1941)، الذي يعتقد بأن الأسطورة أساسها الواقع، ومن ثمة يجب أن نسلم بأنها حتى بوجود العناصر الوحشية واللاعقلية فيها، فإنها تقوم على أصول تاريخية وجغرافية. ويعتقد أن بعض أوجه السلوك الأسطوري لازالت حية في عالمنا المعاصر، لا من حيث أنها بقية أفكار قديمة بل من حيث كونها مظاهر ووظائف معينة.

لننظر في هذه الأسطورة التي تحكي هلاك مدينة أور في العراق، وقد وردت في نص يتألف من حوالي الأربعمائة بيت شعري، يخبرنا أن الآلهة قررت تدمير المدينة. هذه الأسطورة لها ما يقابلها في الواقع، إنها تحكي حدث حقيقي، وواقعة تاريخية تتمثل في الهجوم الكاسح لذي قام به الإلاميون على مدينة أور حوالي 2000 ق م، لكن الأسطورة أهملت السياق الزمني والدلالة التاريخية لهذا الحدث، وعالجته على المستوى الميثولوجي، ليس من أجل التاريخ، وإنما بغرض الأمثلة وأخذ العبرة (السواح، 2001، صفحة 48). إن الأسطورة عند هؤلاء هي تاريخ لوقائع عرفتها أمة معينة، ثم تعرضت لاحقا لتعديلات مستمرة لدرجة أصبحت تبدو لا صلة لها بالحدث الأصلي. والنظر إليها من هذه الزاوية شجع البعض على وضعها محل وقائع التاريخ، ومبرهمهم أن سجلات التاريخ مُغرصة، بل ذهبوا أبعد من ذلك عندما استعانوا بالكتب الأدبية والفنية والتذكارية وما تتضمنه من أساطير لأنها بنظرهم تضمن المعرفة الصحيحة لوقائع الماضي (لويون، 2011، صفحة 73).

3.2. الأسطورة في الأدب

قد تستغل الأسطورة في تمجيد الأمم، فتظهر في صورة أعمال أدبية مرموقة. ومن ذلك أن الشاعر فيرجيل حاول الإشادة بالرومان من خلال التغني بأن والد الامبراطور الروماني أغسطس يرجع نسبه إلى الإلهة فينوس محاولا الربط بين الأسطورة والتاريخ لإنبات عراقة الشعب الروماني (النوبيعي، 2012، صفحة 175). إن الأسطورة حسب هذا الطرح ما هي إلا تراكم نتائج الفكر الإنساني المبدع في مجال الأدب سواء كان شعرا أو نثرا، والمعلوم أن هذه المجالات لاتستغني عن الخيال والمجاز، ففي كل مرة لا يستطيع راويها كبح رغبته الملحة في الإضافة إليها من عناصر جديدة نابعة من خياله الخاص، ومن ظروف اجتماعية مستجدة تحيط به، لكنها عندما تأخذ شكلها المكتمل تكون قد عبرت عن طابع في

وفكري وأدبي لشعب من الشعوب (السواح، 1996، صفحة 13). ولهذا قال الكاتب المسرحي الألماني ريتشارد فاجنر 1813. 1883 أنه لا يمكن فهم الفن الاغريقي إلا من خلال الأسطورة والتراجيديا الاغريقية، لأنها كانت تمثل تجسيدا للدوافع الكامنة في جميع أفراد الشعب هناك على غرار باقي أنحاء العالم (تادرس، دت، صفحة 7).

ومن أشهر الأساطير التي ظهرت في صياغة أدبية نذكر أسطورة جلجامش ملك أوروك السومري والتي تعد أحد شوامخ الأدب العالمي، وهي أقدم نوع من أدب الملاحم البطولي في تاريخ الحضارات، التي كشفت عنها الحملات الأثرية التي قام بها هواة الآثار وقناصل الدول الأجنبية في مدن العراق القديم الشمالية في منتصف القرن التاسع عشر. وبينت التحاليل أن هذه الأسطورة دونت قبل 4000 سنة، من الآن، أما أحداثها فتعود إلى فترات زمنية أبعد. وتتمتع هذه الملحمة بجاذبية دائمة لأنها عالجت قضايا لا تزال تشغل فكر الإنسان المعاصر، كمشكلة الحياة والموت والخلود والصراع بينهما (باقر، 2006، صفحة 23). أما الإلياذة فصورت علاقة الإنسان بالطبيعة والبشر والإله، ورسمت لنا الصورة المثلى لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الذي يريد أن يحقق لشعبه الخلاص، وبالمثل أصبحت أسطورة بروميثوس التي صاغها المسرحي اليوناني إسخيولوس بمثابة رمز خالد لعظمة النضال في سبيل الحرية.

وأصبح من الجائز في الثقافة الغربية وغيرها استقاء الأمثلة من المساعي الصوفية لكبار الشعراء الذين يعملون كثيرا على العوالم المستترة في الأساطير، من أجل الصمود في مواجهة النهضة التي قدست العقل في القرن الثامن عشر للميلاد، ومن هؤلاء هولدرلين Holderlin (1770. 1843) الذي طالما عبر عن انشغالاته الفكرية بالعودة إلى الأساطير اليونانية القديمة (شايغان، 2007، صفحة 96).

وجاءت أسطورة فاوست معبرة عن تطلعات وطموحات الشخصية الأوروبية في القرن التاسع عشر. ورواية الابله للروائي الروسي فيودور دوستويفسكي (1821. 1881) والتي قدم فيها شخصية تمثل صيغة حديثة لحياة المسيح، إذ تتمرد على كل أصنام الحياة المعاصرة، وهو نفس ما يفعله دون كيشوت الفارس النبيل الذي يحارب ببسالة مؤسسات عصره الذي أخذ يشهد استفحال سلطة المال (غارودي، 2002، صفحة 321). هذه الملاحم الأدبية وغيرها تمثل التاريخ الحقيقي للإنسانية، أما ما يطلق عليه اسم التاريخ فلا يعدو أن يكون سجلا يدونه المنتصرون (غارودي، 2002، صفحة 322).

فظلت بذلك الأسطورة تلعب نفس الدور الذي كانت تقوم به في المجتمعات القديمة والبدائية، متوسلة بالرموز وحيوية القصة المدعنة بالصور الحسية، وما إليها من طقوس ذات المعنى العميق،

مساهمة بذلك في الحد من هيمنة النزعة العقلانية عن طريق توظيف الشعر والفن والدراما، ولولا هذه العناصر ما كانت نصوص شكسبير لتحركنا، إنها تفعل ذلك لكونها تستند للميثولوجيا.

3. الأسطورة في السينما والموسيقى والرياضة

يتجلى النزوع الأسطوري في المجتمعات الحديثة فيما نراه من جنوح جماهير الشباب إلى خلق أنصاف آلهة تسكن على الأرض. وتقدم عزاء للناس يعوضهم جفاف الحياة العصرية وغيرتهم فيها، ولنا في نجوم الرياضة والموسيقى الحديثة خير مثال على ميل الجماهير لخلق مثل هذه الشخصيات التي تحيط بها هالة من القداسة. وما نراه في صالات الروك من هوس جماعي يشير فعلا إلى عبادات دنيوية تصدر عن نوازع اسطورية متأصلة في النفس البشرية، ويكفي الانخراط في إحدى هذه الحفلات حسب فراس السواح ليكتشف المرء بأن عريدات وطقوس ديونيسوس وهو إله الخمر في الميثولوجيا الاغريقية لم تنقطع قط، وأنها ما زالت تمارس تحت أسماء جديدة وبأشكال مختلفة (السواح، 2001، صفحة 32).

ومن ذلك ما تخبرنا عنه مواقع الانترنت ومنصات الإعلام من ظهور ما يعرف بالكنيسة المارادونية، ومع أنها ليست كنيسة ذات طابع رسمي وغير معترف بها، إلا أنها تكشف عن إصرار الإنسان على الاستمرار في إنتاج الأساطير. لقد تم تكريس هذه الكنيسة في مدينة روزاريو الأرجنتينية باسم لاعب كرة القدم الأرجنتيني ديبغو ارماندو مارادونا وقد أسسها محبوه في 30 أكتوبر عام 1998 الموافق لذكرى ميلاد هذا اللاعب، ولاحقا تم تأسيس نسخة عنها في نابولي الإيطالية. وذكر موقع BBC عربية أن الألاف من منتسبي هذه الكنيسة يحتفلون كل عام بكريسماس مارادونا في روزاريو مثلما يحتفل المسيحيون بعيد ميلاد المسيح في كنيسة المهد في القدس، وعلى غرار المسيحية فإن هذه (الديانة) تتضمن عشرة وصايا وتؤدي الصلاة فيها بتلاوة فقرة مطلعها (ديبغو الذي في الملاعب) ولها أعياد سنوية محددة والغريب أن المؤمنين بها في ارتفاع مستمر بعد وفاة هذا اللاعب (BBC، 2021)، ثم أن صعود السينما في القرن العشرين و تحريكها لمشاهديها لا يمكن تفسيره عند البعض إلا بصور الفن السينمائي عن نزوع ميثولوجي، وسداها لحاجيات ميثولوجية أصيلة لدى جمهور السينما. بل غدت السينما بمثابة الصانع الرئيسي لأساطير القرن العشرين (السواح، 2001، صفحة 30). ولو تعمقنا في الأفكار التي تطرحها الأفلام المعاصرة لوجدناها محملة ببعض الأساطير، ومن ذلك أن شخصية سوبرمان هي بمثابة أسطورة تلي حيننا عند الإنسان المعاصر، الذي يحلم أن يكتشف في نفسه ذات يوم شخصية استثنائية في صورة بطل خارق (إلياد، 1991، صفحة 173)، وتعتبر السينما الهندية الشعبية مصدرا مهما لخلق أساطير سينمائية خارقة وعالمها يتفاعل معها.

4. الأسطورة في العُمَلات والرايات والعلامات التجارية

ولك أن تمنع النظر في الكثير من الشعارات المختلفة والعملات النقدية في عالمنا المعاصر وحينها ستجدها مفعمة بالرموز الأسطورية.

1.4. الأسطورة في العُمَلات

عادة ما تحمل العملات المعدنية والورقية رسومات وأشكال تعبر عن هوية البلد الذي تنتهي إليه، لكن أحيانا نجدها تتضمن اشكال غريبة ليس لها ما يقابلها في عالمنا المعاصر لأنها ببساطة قادمة من الماضي حيث تقبع الأساطير والقصص البدئية.

ففي العملة الأمريكية خاصة الورقة من فئة واحد دولار نجدها متخمة بالإشارات الأسطورية، فالجانب الأيمن لظهرها يحتوي على النسرو هو يشير إلى هبوط الرب وظهوره في التاريخ، ويحمل هذا النسرو في أحد قائمته ثلاثة عشر سهما، وهو مبدأ الحرب، وفي الأخرى يحمل غصن زيتون فيه ثلاثة عشرة ورقة وهو تعبير عن مبدأ السلم، وفوق رأسه ثلاثة عشرة نجمة تشكل معا نجمة داود(كامبل وموريز، 2002، صفحة 57). وعلى الجانب الأيسر نجد هرما فوقه العين التي ترى كل شيء حسب التصور الماسوني، ويتكون الهرم من ثلاثة عشرة صفا وفوقه عبارة لاتينية ANNUIT CŒPTIS ومعناها إنه راض عن مشروعنا، وهي مفاهيم لا يمكن إخفاء الجانب الأسطوري فيها.

2.4. الأسطورة في الرايات

وبالانتقال للشعارات والرايات والاعلام نجدها أيضا مثقلة برموز أسطورية، ومن ذلك أن شعار روما الذي يحتوي على رسم ذئبة ترضع طفلين، وترجع قصة هذا الشعار إلى أنه عندما تخلى نوميتر والد التوأمن روميلوس ورموس عن العرش، تقول الأسطورة أنه أمرهما بالقفز في نهر التير، وبعد القفز تدخلت ذئبة فأقذتهما، وبعد مدة وجدهما الراعي فاستولوس وقام بتربيتهما. وحسب الرواية الأكثر انتشارا قررا التوأمان بناء مدينة روما. وعلى إثر خلاف نشب بينهما حول مكان تشييدها قتل رومولوس أخيه، ثم شرع في بنائها وفي النهاية أطلق اسمه عليها، وتم تخليد هذه الأسطورة في شعار روما وشعار أحد نواديها الكروية. والجانب الأسطوري في الشعارات نعثر عليه أيضا في علم اليابان الذي تتوسطه دائرة حمراء تشير لدى اليابانيين إلى الشمس التي يقدسونها ويعتقدون أن حاكمهم ابنا لها ليظهر هذا الاعتقاد

في رايتهم الوطنية. ونفس الشيء بالنسبة لعلم الأرجنتين الذي يتكون من خطين أزرقين بينهما صورة ذات وجه إنساني يمثل إلهة الشمس عند الإنكا.

3.4. الأسطورة في العلامات التجارية

عين حورس تميمة استخدمها الفراعنة طلباً للحماية من الأرواح الشريرة وجلباً للحظ، و يبدو أنها عادت في عصرنا ويمكن رؤيتها في عدد كبير من العلامات التجارية لاسيما عالم السيارات. ففي عصر الصناعة شهد العالم ظهور الكثير من المركبات مختلفة الأحجام والقادرة على التنقل في البر والبحر والجو وبالنظر لتعدد الشركات المنتجة لها، كان من الضروري تمييزها عن غيرها بعلامة تجارية مسجلة يترتب على تقليدها عقوبات، لكن ما يلاحظ على أغلب هذه العلامات هو وضع الرمز داخل دائرة أو ما يشبه الدائرة أو عين حورس. والأمثلة في هذا الصدد كثيرة أنظر مثلاً لعلامات هذه السيارات: ألفا روميو، مرسيدس، بي أم دبليو، فورد، فيات، هيونداي، كيا، نيسان، تويوتا، فولكس فاغن، وغيرها، وهي من أفخم السيارات نجدها تشترك في وجود دائرة تحيط بماركة السيارة. لا أعتقد أن الأمر حدث صدفة بل هو تقليد فرضته هواجس أصحاب الشركات المنتجة لهذه السيارات هواجس دفعهم لاستعمال كل ما من شأنه المساعدة في رواج منتجاتهم حتى لو تعلق الأمر بالأساطير، وهذا ما يفسر حرصهم على وضع علاماتهم التجارية داخل دائرة أو ما يشبهها وهو الشكل القريب من العين عين حورس.

5. الأسطورة في السياسة

في هذا الصدد يمكن ذكر الألمان الذين تعلقوا بأسطورة الشعب الآري المتميز عن غيره من الشعوب، بعد أن سيطرت على عقول عشرات الملايين منهم أفكار عن أسطورة الفوهرر الملمم، وأسطورة العرق الآري المتفوق وما إليها من أساطير تم زرعها بمهارة في مجتمع يفتخر بأنه صانع الفلسفة الحديثة في أوروبا ورائد الفكر العلمي، ليتحول ذلك إلى أيديولوجية نازية قادت العالم إلى أهوال حرب شاملة. وفي هذا قال الفيلسوف الألماني أرنست كاسير (1875-1945): "لقد بدأ العالم السياسي يشعر بالقلق من إعادة تسليح ألمانيا ومن احتمال انفجارها" (كاسير، 1975، صفحة 372)، ويعين الفيلسوف أدرك كاسير أن وجود نزعة التسليح كانت نتيجة لعامل آخر ظهر قبل سنوات، ويعني به عملية إحياء الأساطير القديمة من طرف الألمان. وهذه النتيجة التي أشار إليها كاسير مقبولة جداً عند داريوش شايفان لأنه يرى أن كل بيت يُشيد أو مدينة تُبنى أو معبد يُقام إلا وهو اشعاع من تجليات الأساطير (شايفان، 2007، صفحة 107). وإذا كان الألمان تحركوا تحت تأثير أسطورة الجنس الأرقى فإن اليهود تحركهم أسطورة شعب الله المختار.

إن اليهود يعرضون تاريخهم كسلسلة من العصور تحديدا دقيقا، مدرجين كل القصص والخرافات والحكايات والأشعار التي انتقلت إليهم عبر التراث الشفهي . ويتفق معظم الشراح المحدثين على أن هذه الصورة التاريخية لا تعدو أن تكون صورة وهمية، وأن تقسيم تاريخهم إلى عصور الأباء، والسخرة في مصر، وغزو كنعان هو تقسيم مصطنع(غارودي، 2002، صفحة 43).

ولا قيمة علمية لتقسيمهم العالم إلى قسمين الأول يخص إسرائيل، والقسم الثاني يضم كل الأمم الأخرى، و لا معنى لاعتقادهم بكونهم شعب الله المختار، فهو مجرد ادعاء ليس له أي سند علمي أو تاريخي(غارودي، 2002، صفحة 54). لكن مع ذلك استمر الكيان الصهيوني يتعامل مع الأمم على هذا الأساس، وعندما تعرض عدد من اليهود للاضطهاد في ألمانيا نجدهم يهولون الأمر، ويصرخون في كل المحافل الدولية بأنهم ضحية إبادة جماعية، مع أن عدد ضحاياهم يمثل نسبة لا تذكر بالمقارنة مع ضحايا الحرب العالمية الأولى والثانية، وضحايا الاستعمار الأوروبي في إفريقيا، لكن على الرغم من استنادهم على الأساطير إلا أنهم تمكنوا من تحقيق مكاسب كبيرة أبرزها احتلال فلسطين.

خاتمة

مما سبق يتبين أن الأسطورة لم تبرح بعد عالمنا المعاصر فهي حاضرة في نشاط الإنسان حضورا يكون واضحا أحيانا، وأحيانا أخرى يكون في حاجة إلى دقة النظر للكشف عن وجودها، وفسر المهتمون بالأساطير استمرار حضورها كونها تسعى لتفسير الظواهر الطبيعية والمعتقدات لدى المجتمعات وتلبى تطلعات أخلاقية وتعلمنا كيفية الالتفات إلى الداخل، لهذا نصطدم معها في كل مفاصل الحياة.

وإذا كان العلم والفلسفة يوظفان العقل التحليلي الذي يفكك الظواهر ثم يعيد تركيبها من أجل فهمها عن طريق الاختبار البرهاني التجريبي أو العقلي، فإن الأسطورة تضع الإنسان بركبته في مواجهة العالم، بجميع ملكاته العقلية والحدسية الشعورية واللاشعورية، لتمكنه من الفوز برؤية متكاملة عنه، بعيدا عن تفكيكه إلى أجزاء، وإذا كانت هذه حقيقة الأسطورة، فهذا لا يُخَوِّلُ لنا القول بأنها نمط متدنيا من التفكير، ولا يعتبر مبررا كافيا لرفضها ووضعها جانبا، والاقتصار على ما تصل إليه العلوم. كما أن أصحابها لا يدعون أنها قامت لأجل تدوين التاريخ، ولا تزعم أنها محاولة في فهم العالم وفق مبادئ العقل، بدليل أنها لا تُنشَدُ الموضوعية، فهذا المصطلح لا معنى له فيها، لأن الموضوعية تنتمي لمجال آخر هو مجال العلوم العقلية والتجريبية، كما أنهم لا يدعون أنهم أدركوا الحقيقة المطلقة ولا حتى الحقيقة النسبية. بل هم على العكس من ذلك تماما، يحذرون من التعامل مع الأساطير وفق المناهج والمعايير المنبئة في دراسة قضايا العلوم التجريبية أو العقلية، ويؤكدون أن الأسطورة لا تهتم إلا بدرجة التأثير في من يؤمن

بها، وتكتفي بتقديم ما يُعتبر رؤية جديدة حول المعنى الأعظم للحياة، ويعتقدون أنه لا داعي للدفاع عن الأسطورة بالقول أنها تستند لقوانين المنطق وقواعد الفيزياء والكيمياء بشكل أو بآخر، لأن هذه المحاولة بنظر أصحاب الأساطير ضررها أكثر من نفعها.

فلا داعي للفخر بعقلانيتنا ونتجاهل أن الإنسان الحالي هو سليل الإنسان القديم صانع الأساطير، وهو إذ يدير ظهره لأساطيره التي فقدت لديه كل مقدرة على الإحياء، فلا يعني أنه تخلص منها، بل هو في عمل مستمر لصنع أساطير جديدة ترضى النزوع الأسطوري لديه. ومن يتعمق في حياة الجماهير سيروى أنها على الدوام عرضة للوقوع في أساطير حديثة مصممة بشكل مدروس من أجل توجيه الحشود والسيطرة عليها. وعليه يمكن اعتبار الأسطورة مثل الفلسفة عند هيجل تعبر عن عصرها وثقافة صانعيها. وقد يكون هذا من العوامل الأساسية التي جعلتها تحافظ على استمرارها، وتجذب لنفسها موطئ قدم في الكثير من المنجزات الإنسانية.

قائمة المصادر والمراجع:

- BBC. (12, 9, 2021). بي بي سي العربية. تم الاسترداد من: www.bbc.com/arabic/world-55636173
- أحمد كمال زكي. (2000). الأساطير دراسة حضارية مقارنة (الإصدار 2). القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- آرثر كورتل. (2010). قاموس أساطير العالم. (سهى الطريحي، المترجمون) دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
- ارنست كاسيرر. (1975). الدولة والأسطورة. (أحمد حمدي محمود، المترجمون) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جوزيف كامبل، و بيل موريز. (2002). سلطان الأسطورة. (بدر الديب، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- حسن نعمة. (2006). ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة. بيروت: دار الفكر اللبناني.
- خزعل الماجدي. (1998). يخور الآلهة، دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين (الإصدار 1). الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.
- خليل حنا تادرس. (د ت). احدى الأساطير العالمية. لبنان: دار كتابنا للنشر.
- داريوش شايغان. (2007). الاصنام الذهبية (الإصدار 1). (حيدر نجف، المترجمون) بيروت: دار الهادي للطباعة و النشر والتوزيع.

- روحي غارودي. (2002). *الاساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية* (الإصدار 4). (محمد هشام، المترجمون) القاهرة: دار الشروق.
- سيد القمني. (1999). *الأسطورة والتراث* (الإصدار 3). القاهرة: المركز المصري لبحوث الحضارة..
- طه باقر. (2006). *ملحمة كلكامش اوديسة العراق الخالدة* (الإصدار 1). عمان: دار الوراق للنشر.
- غوستاف لوبون. (2011). *سيكولوجية الجماهير* (الإصدار 3). (هاشم صالح، المترجمون) بيروت: دار الساق.
- فراس السواح. (2001). *الأسطورة والمعنى. دراسة في الميثولوجيا، والديانات الشرقية* (الإصدار 2). دمشق: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة.
- فراس السواح. (1996). *مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، سورية وبلاد الرافدين* (الإصدار 1). دمشق: دار علاء الدين.
- كلود ليفي شتراوس. (1986). *الأسطورة والمعنى* (الإصدار 1). (شاكر عبد الحميد، المترجمون) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- ماجدة النويبعي. (2012). *اسطورة أينياس في ملحمة الانبثاق للشاعر الروماني فرجيليوس. مجلة عالم الفكر*، 175.
- محمد السيد محمد عبد الغني. (2012). *نظرة الأثينيين إلى الأسطورة. مجلة عالم الفكر*، 41 (4)، 16.
- مرسيا إلياد. (1991). *مظاهر الأسطورة* (الإصدار 1). (نهاد خياطة، المترجمون) دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر.
- مصطفى الرزاز. (2012). *الأسطورة في الفن الحديث. مجلة عالم الفكر*، 146.
- معن زيادة. (1986). *الموسوعة الفلسفية العربية* (الإصدار 1، المجلد 1). بيروت: معهد الانماء العربي.